وإذا كانت الأحوال تعتبر مقدمة للمقامات ــ كما يقول **الإمام الغزالي** ــ فما هي مقامات السالكين وأحوال الطالبين ؟

نسير في نور منهج القرآن الكريم في المقامات التي أوردها **أبو طالب المكي** (ت٣٨٦هـ) في كتابه " **قوت القلوب** " ، حيث جعلها تسعة مقامات ، هي :-

التوبة ، فالصبر ، فالشكر ، فالرجاء ، فالخوف ، فالزهد ، فالتوكل ، فالرضا ، فالمحبة .

وأضاف **أبو نصر الطوسي** (ت٣٧٨هـ) إليها **مقام الورع ، ومقام الفقر.**

وتعتبر هذه المقامات من أبرز الصفات التي تعرض إليها المتصوفة ، وسنتعرض إلى درجة كل مقام بتعريفه ، والاستدلال عليه .

(ب) المقامات.

[١] التوبة.

معناها لغة : الرجوع ، قال الله ﷻ :

﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ التوبة ١١٨ .

وقال ﷻ ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ..** ﴾التحريم ٨.

وقال ﷻ ﴿ **ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا**﴾الفرقان ٧١.

وتعتبر التوبة أولى المقامات ، بل هي أصل كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهي كما يقول **السهروردي** : " بمثابة الأرض للبناء ، فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ، ولا مقام له ." (٣١)

(٣١) عوارف المعارف للسهروردي ص١٣٠ .

والتوبة عند **الجنيد** هي : " **أن ينسى ذنبه** " ، ولما سئل عن ذلك أجاب بأنها توبة المحققين ، لا يذكرون ذنبهم لما غلب قلوبهم من عظمته تعالى"(٣٢)

فالتوبة فضل من الله على العبد يشعر فيها برحمة سيده وعفوه وكرمه حتى لا يكون فريسة لشيطان هواه ، فهو لائذ بمولاه ، كما قال ﷺ : **"وأتبع السيئة الحسنة تمحها "**(٣٣)

وهي من علامات الانتباه بعد الغفلة ، يقول **السهروردي** : " علامات الانتباه خمس ، إذا ذكر نفسه افتقر ، وإذا ذكر ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المولى اقشعر . "(٣٤)

ونتائج التوبة وثمراتها طهارة ظاهرية وطهارة باطنية ، أما الظاهرية فتكون من ارتكاب الذنوب كبيرها وصغيرها ، وأما الباطنية فتكون من أمراض القلب ، كالحسد والغل والحقد إلى آخرها .

يقول **ذو النون المصري** : " إن توبة العوام تكون من الذنوب ، أما توبة الخواص فتكون من الغفلة " (٣٥)

قال الله ﷻ ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ آل عمران ١٣٥ .

---

(٣٢) الرسالة القشيرية ج١ص٢٥٩ .
(٣٣) حديث حسن : انظر صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ٩٧ .
(٣٤) عوارف المعارف ج٤ص٢٠٤ .
(٣٥) السابق ص٢٢٨ .

والتوبة الخالصة هي التي يكون لها في القلب لذة يشعر بها التائب ، فكما أن للشهوة والذنب لذة جسدية ، يكون للرجوع والندم والعودة إلى طريق الله لذة أسمى وأشرف ، إنها لذة القرب والاستئناس بقرب العبد من سيده. وباب التوبة لا يغلق ، قال الله ﷻ ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ الزمر ٥٣ .

إذا رجع العبد بصدق إلى مولاه ، وذكره ولم ينساه ، وأحس بخلجات قلبه أنه مع سيده حق له أن يزهد في كل شيء يبعده عن مولاه ، فالتوبة مرآة يرى فيها السالك أن متاع الدنيا قليل فيرقى إلى مقام الزهد .

[٢] الزهد .

وهو المقام الثاني : وهو مقام جليل ، ويعتبر أساس من أسس الأحوال "ومن لم يثبت أقدامه في الزهد لم يصح له شيء مما يطلب ، فحب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة " (٣٦)

وقد أخبر الرسول ﷺ بمدح الزاهد ودعا بالاقتراب منه ؛ لأنه يلقن الحكمة ، فقال ﷺ : " إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة . " (٣٧)

والقرآن الكريم يصف الدنيا بمتاعها بالنسبة للآخرة فيقول ﷻ :

﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ آل عمران ١٨٥ .

ويقول ﷻ ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾ النساء ٧٧ .

(٣٦) اللمع للطوسي ص٧٢ .

(٣٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، كما رواه ابن ماجه ، وأبو نعيم في الحلية .

والزهد عند **الإمام الغزالي** : " عبارة عن رغبة الزاهد عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ، وهي الدرجة العليا " (٣٨)

فالسالك إلى الله يرى أن الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة شيء لا قيمة له فيجاهد نفسه في منعها حتى تستقر على طاعة ربها ، وتستحق نداء الجليل ﷻ ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي** ﴾ الفجر ٢٧-٣٠ .

ولقد رتب **الإمام الشعراني** الزهد ، وجعله ثلاث درجات :-

الأولى : أن يزهد السالك في الحرام ومما فيه شبهة ، ويفتش عن الحلال.

الثانية : أن يزهد في الدنيا ؛ لأنها تشغله عن الوصول إلى الله ﷻ .

الثالثة : أن يزهد في كل شيء يشغله عن مولاه من غير ميل قلبي إليه .

ولقد تحدث **الإمام الشعراني** عن نفسه وزهده في الدنيا ، فقال : " لقد بلغت في الزهد مقاما حتى لو أمطرت السماء ذهبا وصار الناس يحثون في أحجارهم ما تحركت مني شعرة واحدة لخوفي من الوقوف للحساب ، وكذلك إذا مررت على تلال ذهب ما طأطأت رأسي لآخذ منها دينارا واحدا زيادة على قوت يومي ، وكان الناس يعرضون علي كثيرا من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها ، وتارة أطرحها إباحة في صحن الجامع . "(٣٩)

وقد مدح الله تعالى الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضلا الله من غير ميل إلى دنيا يصيبها ، قال ﷻ يصف حالهم في بيعهم وشرائهم :

---

(٣٨) إحياء علوم الدين ج٤ص١٥٤ .
(٣٩) لطائف المنن ص٣٣ .

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾النور٣٧-٣٨.

كما ذم الذين ينصرفون عن الرسول ﷺ وحلقات الذكر عند سماعهم بحضور تجارة ، قال ﷻ :

﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ الجمعة ١١.

وهذا يرد على من يقول إن التصوف منهج سلبي فأهله لا يعملون بل يحتاجون إلى من يعمل ليمدهم بما يأكلون ، هذا فهم خاطئ ، فالزهد ليس معناه ترك السعي على المعاش ، وأن يكون العبد قادرا على العمل ويجلس عالة على غيره ، فهذا ما لا يتفق مع المنهج الإسلامي في التصوف ، وإنني سأضرب الأمثلة عند الحديث عن نماذج من أئمة التصوف ــ رضوان الله عليهم جميعا ــ فجميعهم كانوا أهل حرفة يعملون وينتسبون إليها ، وما كانوا أبدا عالة على غيرهم .

لقد فهموا الزهد بأنه عدم الميل القلبي إلى متاع الدنيا ، ولا مانع من جمعها والسعي في تحصيلها للإنفاق منها على النفس والأهل والولد والمحتاجين ، وسد حاجة الطالبين ، وإطعام الفقراء والمساكين ، يقول **الإمام السهروردي** : " إن السالك الزاهد عندما يختار الزهد بعلمه وإرادته ، وعلمه قاصر ، فإذا انسلخ من إرادته واختياره كاشفه الله بمراده ، فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه ، فيكون زهده بالله تعالى حينئذ ... والزاهد هذا استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ، إن تركها تركها لله ، وإن أخذها أخذها بالله . " (٤٠)

(٤٠) عوارف المعارف ج٤ص٢٣٥ .

فإذا أقام السالك على هذا المعنى في الزهد ، وتمثل قـــول الله ﴿ **لكيـــلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ الحديد ٢٣ .

فهو لا يفرح إذا أقبلت ولا يحزن إذا أدبرت ، وأصبح مشتغلا بذكر ربـــه يرى إرادته في إرادته ، تاركا التدبير له قائلا : " اللهم دبر لي فـــإني لا أحسن التدبير " عندئذ ينتقل إلى مقام آخر هو مقام التجريد .

[٣] **التجريد .**

التجريد أحد مقام السالكين ، ومعناه : انسلاخ العبد بالكلية عن العلائـــق الظاهرية والباطنية التي تشغله عن ربه .

يقول **ابن عجيبة** : تجريد الظاهر : هو ترك كل ما يشغل الجوارح عـــن طاعة الله تعالى .

وتجريد الباطن : هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله .

ومعنى تجريدهما : هو إفراد القلب والقالب لله ﷻ . (٤١)

** **متى يتحقق التجريد للعبد ؟**

يجيب **الإمام الشعراني** فيقول : " إذا قطع علاقته بالدنيا ونفض يديه منـــها بالكلية ، ولم يأسف على فواتها إن تركته ، إذا شـــهد أن كـــل شـــيء لله تعالى، فهو وحده الذي يعطي ويمنع ، ويعز ويذل ، وإذا وصل العبد إلـــى هذا حق له مقام التجريد . (٤٢)

إن مقام التجريد الانسلاخ الكافي والتطهر الظاهري والباطني من تدنـــي النفس وتعلقها بالعنصر الترابي والمـــهبط الجســـدي الجـــامع للـــنزوات والشهوات الإبليسية ، إنه إقرار القلـــب والقـــالب لله والتفـــرغ لذكـــره

(٤١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ــ أحمد بن محمد بن عجيبة ص١١٦ .
(٤٢) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ج٢ص٧٧ .

والاعتصام بحبله ، فإذا ثبت عند ذلك تدرج إلى مقام آخر ، وهو مقـــام الخوف .

[٤] الخوف .

الخوف من الله أحد مقامات الطالبين ، وقد جاء القرآن الكريم بما يؤكـــد هذا المقام ، قال ﷻ ﴿ **وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ آل عمران ١٧٥ .

فجعل الخوف من علامات الإيمان ، ووصف من تتجافى جنوبـــهم عـــن المضاجع بأنهم ﴿ **يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ السجدة ١٦ .

وقال ﷻ مبينا جزاء الخائفين ومقامهم في الآخرة :

﴿ **و لمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ الرحمن ٤٦ .

وسألت السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ رسول الله ﷺ عن معنى قوله ﷻ : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبـهم وجلـة أنـهم إلـى ربـهم راجعون** ﴾ المؤمنون ٦٠ .

أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ... ؟

فقال ﷺ:**لا ، ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبله.**"(٤٣)

** ومعنى الخوف عند الصوفية : أن يخشى المريد الوقوع في الذنـــب مخافة الله ..

** وللخوف درجات :-

أولها : مخافة الله :

﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ النحل ٥٠.

ثانيها : غواية النفس بواسطة وسوسة الشيطان ، فيخاف من تلك الغوايـة ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ الشمس ٧-٨ .

(٤٣) اللمع للطوسي ص١١٨ .

ثالثها : الخشية أن يأنف العبد من البداية من اقتراب ما نهى الله عنه : **﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ﴾** الإنسان ١٠-١١ .

رابعها : الهيبة : وهي إدراك العبد لمعنى العظمة والجمال الإلهي التي تجعله يقول :

﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ يوسف ٢٣ .

إن من يربي نفسه بعون الله له ويخاف من جلاله وعظمته وموقف المحاسبة يوم القيامة ، فإنه يظلله بأمن من عنده يوم القيامة **﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ الذين آمنوا وكانوا يتقون ٠ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... ﴾** يونس ٦٣-٦٤ .

وللإمام الغزالي في الخوف كلام طيب حيث قال : " الخوف باعث إلى الخير بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث إلى الخير بطريق الرغبة."(٤٤)

فهو يفرق بين فعل الخير عن طريق الرهبة ، وفعله عن طريق الرغبة . ففعله عن الطريق الأول دافعه العقاب ، وعن الطريق الثاني الدافع له النظر إلى الله ﷻ رجاء خيره .

ولقد تحدث **الإمام الشعراني** عن الخوف فقال : " إنه يحيط بالمؤمنين ويملأ قلوبهم ما داموا في دار الدنيا **﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . ﴾ الإنسان ١٠.**

(٤٤) إحياء علوم الدين ج٢ص٣٠ .

ويوضح أسباب ذلك بقوله : " إن الإنسان غير معصوم ، وجبلة الإنسان تجعله يضعف أمام الشهوات ، ووجود إبليس ووسوسته للنفس ﴿...لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ الحجر ٤٠ .

وفسر ذلك : أن العصمة لا تكون إلا للأنبياء ، وقد غوى إبليس الكثير ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ الأعراف ٩٩ .

وقال سيدنا أبو بكر ﷺ : " أنا لا آمن مكر ربي ولو كانت إحدى قدماي في الجنة."

ومقام الخوف يجعل الإنسان دائم المراقبة لله ﷻ ، ولا يستطيع الإنسان أن يدعي العصمة أو الامتناع من الوقوع في المعاصي الظاهرة والباطنة، وقد أجاب الرسول ﷺ في حديث الإيمان حين سئل عن الإحسان فقال : "أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (٤٥)

والخوف يقتضي الرجاء .

[٥] الصبر .

والصبر أحد مقامات الصوفية ، وهو انتظار الفرج من الله ، ولا يكون إلا على أمر تكرهه النفس ، قال الله ﷻ :

﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ النحل ١٢٧ .

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾الكهف ٢٨.

﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ المزمل ١٠ .

والصبر من أفضل الأعمال وأعلاها ، وهو نصف الإيمان ، وقيل : لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر ، والصبر يجري في الصابر مجرى الأنفاس ؛ لأن الصابر محتاج إليه في كل ما

(٤٥) البخاري ــ كتاب الإيمان ج١ .

يفعل أو يترك ، فالطاعة تحتاج إلى صبر في أدائها ، والمعصية تحتاج إلى صبر للبعد عنها ، والعلم يدل والصبر يقبل ، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ، ومن كان العلم سائسه في الظاهر والباطن لا يتم له ذلك إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه " (٤٦)

وعندما ننظر إلى مقام الصبر عند **الإمام الغزالي** نجد أنه أحد مقامات الدين ، ومنزل السالكين ، ويرى أن مقامات الدين تتكون من ثلاثة أمور: معارف ، وأحوال ، وأعمال .

والمعارف عنده هي الأصول التي تورث الأحوال ، والأحوال تورث الأعمال ، وقد شبه ذلك بالشجرة التي تشتمل على فروع وثمار ، فجعل المعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار .

ولما كان الصبر نصف الإيمان فهو يطلق على التصديقات والأعمال جميعا ، وبذلك يكون للإيمان ركنان، أحدهما اليقين، والآخر الصبر."(٤٧)

ونحن بدورنا نعقب على ما قاله **الإمام الغزالي** : فقد ربط بين الصبر والعلم ، والصبر لا يصدر من فراغ ، بل إنه يبنى على قسمين العلم النظري والعملي ، فالمريد إذا أدرك المقام الذي يمر به تحقق له مقام الصبر ، والمريد يجمع أطراف الاختبار الداخلي في ذاته أو من الآخرين من صروف الدنيا ، والآية التي تشير إلى الاختبار الخارجي قوله ﷻ :- ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ لقمان ١٧ .

أما الصبر على مكروه ذاتي فقوله ﷻ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ آل عمران ٢٠٠ .

فالاختبار عندنا يقع بالفعل عند المريد ، فإنه يتطلب منه الصبر الذي هو الجهاد الأكبر الذي قدمه الرسول ﷺ على الجهاد في ميدان الحرب وسماه

(٤٦) عوارف المعارف ص١١ .
(٤٧) إحياء علوم الدين ج٤ص٩٠ .

جهادا أصغر ، فالصبر يعتبر من السمات الواضحة في مدارك السالك حيث يدرب النفس على الرضى بقدره ، والسمة الروحية في معناها الصوفية التي تنتظم ويتدرج في سلم الشدة كلما ارتقى المريد في مراتب السلم الصوفي ، فيكون زاده في رحلته الروحية الذي يواجه به آلام الطريق هو الصبر ، الذي يتدرب به على التريث وضبط النفس وعدم التسرع حتى لا تنزلق أقدامه ، ويقد من يده طوق القيادة فيسقط في مهاوي الضلال ، وانتكاس بعض المريدين في أثناء الطريق سببها نقص في اكتمال معاني الصبر لديهم ، فالطريق مشحون بالمكاره ويحتاج إلى مكابدة ومجاهدة ؛ لأنه على غير مراد النفس ، ويستمر السالك في الطريق حتى ينال رضوان الله ﷻ .

[٦] **الشكر .**

من جملة مقام السالكين شكر الله ﷻ ، وقد عرفه **السهروردي** : " بأنه الغيبة عن النعمة برؤية المنعم سبحانه ."

وقال **يحيى بن معاذ** : لست بشاكر ما دمت تشكر ، وغاية الشكر التحير، وذلك أن النعمة من الله بالشكر ، فهي نعمة يجب الشكر عليها . "(٤٨)

وإذا رجعنا إلى كتاب الله ﷻ نجد أنه جعل وصول النعمة إلى العبد سببا في شكر المنعم ﷻ ، فقال حكاية عن سيدنا سليمان عليه السلام عندما وجد عرش بلقيس أمامه ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ النمل ٤٠ .

---

(٤٨) عوارف المعارف ص١٣٥-١٣٦ .

الفصل الرابع .

الأحوال .

سبق تعريف الأحوال في بداية الفصل الثالث ، أما هذه الأحوال فهي كما يلي :-

(١) المراقبة والمحاسبة .

من أحوال المريد مراقبته لنفسه ومحاسبته لها أولا بأول : " **وأتبع السيئة الحسنة تمحها** "(٤٩) فمقام التوبة نتيجة لمراقبة النفس ومحاسبتها .

ولا يصدق إيمان العبد إلا إذا حاسب نفسه ، وحديث سيدنا جبريل في سؤاله للرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، قال : **ما الإحسان ؟** قال ﷺ : **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** " (٥٠)

والمراقبة هي علم العبد بأن الله مطلع عليه ، وهذا أصل لكل خير فلا يعمل إلا ما يرضيه ويأمر به ، وألا يراه حيث نهاه .

** **من ثمرات محاسبة النفس :-**

مراجعة الماضي ، وإصلاح الحال في الوقت وملازمة طريق الحق ، فيزجر نفسه على انحرافها ، ويلومها على ما فرطت في جنب الله ، ويتوالى وخزا لضميره حتى تستقر نفسه على الطاعة وتتعود الإرادة على الطاعة وتستقر عليها .

فالمحاسبة محكمة أخلاقية تصفي محاسبة النفس أولا بأول " **حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا** " .

ولهذا يقول من أوتي كتابه بيمينه ﴿ **إني ظننت أني ملاق حسابيه** ﴾الحاقة ٢٠.

---

(٤٩) سبق تخريجه في هذا البحث .

(٥٠) رواه البخاري في كتاب الإيمان ج١

إن العبد بمراقبته ومحاسبته لنفسه يضعها في الطريق القويم ، طريق التطهر والتهذيب ، فهو مع حسابها على ما قدمت يراقبها حتى لا تهبط مرة ثانية ، إنه يراقب الله ﷻ في قوله ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ق ١٨ .

ويراقب الله ﷻ في أفعاله ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم** ﴾المجادلة ٧

والنفس التي تلوم الإنسان على فعل الشر لا يكون هذا اللوم إلا بعد المحاسبة ، قال الله ﷻ ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ القيامة ١-٢ .

يقف المريد أمام نفسه كالحارس على شيء خوفا من شياطين الإنس والجن أن يسرقوه أو يفسدوه أو يهلكوه ، والله من وراء القصد عونا ورعاية ، إنه دائما يستمد العون من الله أن يعينه حتى يصل إلى بر النجاة ﴿ **قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن و أكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ يوسف ٣٣-٣٤ .

(٢) القبض والبسط .

قال الله ﷻ ﴿ **والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون**﴾ البقرة ٢٤٥ .

القبض والبسط حالتان بعد ترقي العبد عن حال الخوف والرجاء .

والخوف يكون من نزول شيء في الزمن المستقبل ، فهو يخاف من فوت شيء يحبه ، أو من نزول شيء يكرهه .

وأما الرجاء فيكون فيما يأمل في المستقبل ، أو يتطلع لرفع ما يكرهه .

وأما القبض والبسط فيكون المعنى وقتي في الحال ، فصاحب القبض أخذ وقته بوارد غلب عليه عاجله ، ثم تتفاوت نعوتهم في القبض والبسط على حسب تفاوتهم في أحوالهم . " (٥١)

وما يتميز به القبض والبسط أنهما يتعلقان في وقتهما بحسب الوارد ، على حين أن الخوف والرجاء يتعلقان بالزمن المستقبل .

ويوضح **الإمام القشيري** هذا فيقول : " إن الفرق بين القبض والبسط والخوف والرجاء : أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل ، وأما القبض فالمعنى حاصل في الوقت ، وكذلك البسط ، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله ، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله . "(٥٢)

والقبض والبسط علامتان تتميز بهما الصوفية بخلاف الخوف والرجاء فيقعان لعوام الناس .

(٣) الهيبة والأنس .

قال الله ﷻ ﴿ **يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ السجدة ١٦ .

الهيبة مصاحبة لاسم الجلالة ، فكل جليل مهاب ، فإذا كان اسم الجلالة مهاب فكيف بصاحب الجلالة ؟

والجلالة معنى من معاني الجمال ، وإذا اختلط الجمال بالجلال تولد منهما الهيبة .

أما الأنس فهو الأمن من الوحشة ، وعدم الشعور بالغربة ، فإذا أنس العبد بربه وترك الأنس بالأهل والصحبة فقد أمن من دخول الشيطان :

﴿ **إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ ص٨٣ .

---

(٥١) الحركة الصوفية في الإسلام ــ د٠أبو ريان ص١٣٣ .

(٥٢) الرسالة القشيرية ج١ص٣٢-٣٣ .

وقد عرف **الجنيد** الأنس بأنه : " ارتفاع الحشمة " .
وسئل **ذو النون** عن الأنس فأجاب بأنه : " انبساط المحب إلى المحبوب " إنه كشف الحجاب وبسط الأنس للأحباب حتى يطمئن القلب بجميل الخطاب .

(٤) الصحو والسكر .

حضور بعد غيبة يسمى صحوا ، وغيبة بعد حضور يسمى سكرا بلغة الصوفية .
والغيبة قد تكون للعباد مما يغلب على قلوبهم من الشعور بالرغبة والرهبة، ومن مقتضيات الخوف والرجاء .
أما السكر فهو خاص بأصحاب المواجيد ، فإذا كوشف بنعت الجمال حصل له السكر وهام القلب وأشرقت الروح ، ويوضح ذلك قوله ﷻ حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام :
﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا** ﴾ الأعراف ١٤٣.
فالسكر والصحو حالتان متلازمتان للمريد ، والسكر للصوفي عند رؤية المحبوب بلا خمر ، فهو سكر روحي أو معنوي لا يعرفه إلا من ذاقه ، ومن ذاق عرف ، فظن خيرا ولا تسأل عن السبب .

(٥) الشوق .

يقول **ابن الفارض** :
لا كان وجد به الآماق جامدة ولا غرام به الأشواق لم تهج .
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد أوفى محب بما يرضيك مبتهج.(٥٣)
والشوق عند المريد حال يشير إلى الاشتياق إلى المحبوب ، ودوام التعلق به ، ودوام اللوعة لفراقه ، فهو ميل إلى المحبوب ، ولا يشتاق العبد إلا

(٥٣) ديوان ابن الفارض ص١٤٥ ــ دار صادر ــ بيروت .

لمن يحب ، وابن الفارض يرضى بأي عذاب إلا عذاب البعد ؛ ولهذا يقول بعض العارفين : " لو حرم المحبون من رؤية من يحبون يوم القيامة لكان كل نعيم الجنة عذاب بالنسبة إليهم، فنعيمهم برؤية محبوبهم."

وقيل : إن حال الشوق ليس له وجود ؛ لأن الشوق لا يكون إلا للغائب ، والله غير غائب ، بل حاضر دائما .

وقيل لبعض العارفين : ما الدليل على وجود الله ، فأجاب بقوله : ومتى غاب حتى يستدل على وجوده .

فحال الشوق مرتبط بالمحبة ارتباطا وثيقا ، قال الله ﷻ ﴿**من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم**﴾ العنكبوت ٥ .

وقال الله ﷻ ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ الكهف ١١٠ .

وكأن الله ﷻ يقول للمشتاقين إلى لقائه: أعلم أن شوقكم إلي غالب ، وأنا أجلت للقائكم أجلا ، وغدا يكون وصولكم إلى ما تشتاقون إليه . " (٥٤)

(٦) القرب .

قال الله ﷻ ﴿ **كلا لا تطعه واسجد واقترب** ﴾ العلق ١٩ .

وقال ﷻ ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ الواقعة ٨٥ .

ويقول ﷻ ﴿ **فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم**﴾الواقعة٨٨-٨٩ .

إن القرب حال من أحوال السالكين إلى الله ، فإذا أخلص العبد في المجاهدة وفي تحمل مصاعب الطريق وشغل ليله بكثرة التهجد وقراءة القرآن والذكر الدائم أنعم الله عليه بلذة القرب .

(٥٤) الحركة الصوفية في الإسلام ــ د٠ أبو ريان ص١٣٧ .

فالله وحده هو الذي يأخذ بيد العبد لكي تتاح له هذه اللحظة الذي يجاهد من أجلها ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾ العنكبوت٦٩ .

وهذا يكون بفضل الله وعطائه للعبد ، والمريدون في هذا على حسب اختيار الله لمن يصطفيه لقربه ، فهذا مفتاح الطريق إلى حضرة القدس ؛ ولهذا لا يكون مقاما بل عد من قبل الأحوال ؛ لأنه اصطفاء في أعلى درجاته وأسمى مراتبه :

﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾ الحج٧٥.

وإذا أذن الله لعبد بالقرب من جنابه فتح له باب كرمه ، يقول **الجنيد** : " **إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب عباده منه** "

وليس اكتسابا ، وإنما هو محض فضل من الله للعبد .

يقول **ابن الفارض** :

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشى بلظى هواك تسعرا .

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى.(٥٥)

وبعد هذا العرض من ضروب المقامات والأحوال عند الصوفية حسب المنهج الإسلامي نرى أن معالم الطريق الصوفي له مميزاته وأسسه في الحياة الروحية ، بحيث أصبح التصوف الإسلامي له مدارسه وشيوخه ومريدوه في كل زمان ومكان.

(٥٥) ديوان ابن الفارض ص١٩٦ .

الفصل الخامس

أسس التصوف في القرآن الكريم.

في أصل الخلق يحدثنا القرآن الكريم بأخذ العهد على بنى آدم بتوحيد الله والاعتراف بربوبيته ، قال الله ﷻ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ... ﴾ الأعراف ١٧٢ .

وقد بين الله الغاية والقصد وراء الخلق بقوله ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .﴾ الذاريات ٥٦-٥٨ .

فليس هناك شيء أهم من عبادة الله سبحانه فقصر الخلق على العبادة لأهميتها ورفعة شأنها ، وتكفل سبحانه بالرزق لأنه الذي يشغل العبد عن ربه ، وضمنه لعبده حتى يطمئن ويعبد الله على يقين واطمئنان ، ثم خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته واستخلفه في أرضه وجعلها مسخرة لمنفعته قال ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة ٣٠ .

وقال ﷻ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... ﴾ البقرة ٣٤ .

وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين حتى يبلغوا عن الله منهجه قال ﷻ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً . ﴾ الأحزاب٤٥-٤٦ .

الدنيا في القرآن .

بين الله في القرآن حقيقة الدنيا وأن الإنسان لا يغتر بزينتها قال الله ﷻ :
﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ الكهف ٤٥ .

فإذا كان القرآن يصورها بهذه الصورة فالإنسان العاقل لا يشغل بها ويغفل عن الله القادر على كل شئ، ويصورها كذلك في قوله ﷻ:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ الحديد ٢٠ .

إن الحياة بما فيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر كل ذلك سوف ينتهي ولكن الآخرة هي الدار الباقية الخالدة والعاقل لا يفضل الفاني على الباقي (إن المؤمن ليحقق عقيدته ولو ضحى بهذه الدنيا)([٥٦]).

وليس معنى هذا أن نترك الدنيا جملة بلا عمل ولا سعى ولكن يأخذ المؤمن منها كما يأخذ المريض من الدواء بلا تكالب شريطة ألا يشغل بالنعمة عن المنعم كما يحكى القرآن عن سيدنا سليمان عليه السلام عندما أحضر الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ... ﴾ النمل ٤٠ .

وأول طريق السالكين ــ كما يقول الإمام الشعراني ــ لا يوصل إليه إلا بأحد سبيلين:

١- الجذب الإلهي. ٢- السلوك على يد شيخ صادق .

ومن لم يدخل من أحد هذين الطريقين فمحال أن يصل إلى شيء من هذا"([٥٧])

([٥٦]) في ظلال القرآن ــ سيد قطب ج٦ ص٣٤٩١ دار الشروق ــ بيروت ط ١٢سنة ١٩٨٦م.
([٥٧]) لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعراني ص٢٥-٢٦ ج١ ــ القاهرة.

ولقد بين الطريق الأول وهو الجذب : "جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين"([٥٨]).

وأما الطريق الثاني : " لابد في التصوف من شرط جوهري هو التأثير الروحي أو بتعبير أدق البركة وهي لا تأتى إلا بواسطة "شيخ" ومن هنا كانت الطرق والبركة تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخا"([٥٩]) في قلب السالك ترد معان وخواطر بعض هذه الخواطر أحوال والبعض الآخر مقامات.

هذه الخواطر وتلك الصفات إذا لازمت السالك واستمرت معه وثبتت لديه وأصبحت منهجا له وسلوكا وصار وصفا قائما به سمي مقاما.

يقول **صاحب الإحياء** : "مثال ذلك صفرة الذهب فإنها ثابتة لا تزول باقية لا تفارق"([٦٠])

أما إذا كانت تلك الخواطر كالومضات تأتى وتزول وتحل ثم تذهب لا تستقر على حال فإنها تسمى " حالا " وذلك مثل حمرة الوجه من الخجل فإنها حال لا تستقر به تزول بزوال الحالة.

التصوف وأصالته في المنهج الإسلامي.

التصوف كأي قضية تطرح على بساط العرض ، وفيها يقول من يقول بالقبول أو الرفض ، ولكل وجهة يؤيد بها رأيه ، وكل مجموعة من الآراء تؤلف حزبا وكل حزب بما لديهم فرحون. والباحثون الشرفاء يدلون بدلوهم ولا يجرمنهم شنآن قوم يرمونهم بالكفر أو الزندقة والخروج

([٥٨]) عوارف المعارف ــ للسهروردي ــ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، د٠ محمود بن الشريف.

([٥٩]) المنقذ من الضلال للغزالي ــ تحقيق د/عبد الحليم محمود ص٣٠.

([٦٠]) إحياء علوم الدين – الغزالى ج٤ ص ١٠٤،١٠٥.

عن الإسلام فمادام الأمر ليس فيه نص بالوجوب أو بالاستحالة فلم يبق إلا الجواز ولاشك أن التصوف باب لا يُدخل منه إلا عباداً اصطفاهم الله للولوج من هذا الباب لاستعداهم ونفاذ سريرتهم وطهارة قلوبهم ، ونشير في البحث مع المصدر الأول.

(أسس التصوف من القرآن الكريم)

لاشك أن كتاب الله تعالى هو مصدر التشريع الأول قد جاء فيه جملة من الآيات الكريمة في تربية الروح والسمو بها كما أكدت على مطالب النفس بلا إفراط ولا تفريط فنجد أن القرآن الكريم يشير إلى خلق النفس وفيها استعداد للخير والشر وجعل جزاء من طهرها الفلاح وجعل الخيبة لمن سار وراء شهواتها قال ﷻ: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا .** ﴾ الشمس ٧-١٠ .

وقد أشار إلى التوكل على الله ، قال ﷻ:

﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ الأحزاب ٣ .

وقال ﷻ: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ الطلاق٣ .

ثم تحدث عن التقوى فقال ﷻ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ...** ﴾ الأحزاب ١.

وقال ﷻ ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ...** ﴾ النساء ١ .

وقال ﷻ: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً.** ﴾ الطلاق ٥.

ثم وضح أحوال السالكين فقال ﷻ : ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً .** ﴾ الأحزاب ٣٥ .